المكابيون

بقلم

دكتور فؤاد حسين

أو « الحشمونايم » أسرة يهودية لعبت دوراً خطيراً جداً فى أحداث الشرق الأدنى التاريخية فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد . أما لفظ « مكابى » فقد يكون لقباً بمعنى « قاذف المطرقة « حشمونا » Asmonaios أو هو اسم الجد الأكبر « شمعون حشموناى » المؤسس الحقيق لهذه الأسرة التى توارث أفرادها الملك وجعلت من لفظ « حشموناى » لقباً لسائر ملوكها ابتداء من « أريستوبول Aristobul » حتى آخرهم « أنتيجونوس Antigonus » وقد مهد لظروف هذه الأسرة فى التاريخ « يهودا المكابى » مؤسس الأسرة اليهودية الأولى إبان قيام المعبد الثانى أعنى الفترة الممتدة من عام ١٤٠ حتى ٣١٧ ق . م . سائراً فى الطريق الذى أعده « متتباس » وابنه يهوذا من قبل .

ولعل الحدث الهام الذى عاون على ظهور هذه الأسرة المكابية هذه الحرب الخاطفة التى قضى بها الاسكندر المقدونى على الدولة الفارسية فبسط سلطانه على آسيا الصغرى وسوريا وفينقيا كما استولى على « صور » بعد حصار دام سبعة شهور وغزه بعد شهرين أو كثر قليلا (أغسطس ونوفمبر عام ٣٣٢ ق . م) ثم مصر بعد دولة يهوذا حيث خرج عدد كبير من اللاويين والكهنة واستقبلوا الاسكندر مبايعين مقدمين له فروض الولاء والطاعة وعلى رأسهم كبير الكهنة « يدوا » وحفيده شمعون . وتحدثنا القصة أن الاسكندر لما استقبل هذا الجمع تحققت رؤية رآها فى مقدونيامفادها أن الكاهن الأكبروصحبه سيستقبلونه ويبايعونه وهكذا نجد أن أول لقاء بين اليهودية واليونانية كان لقاء موفقاً بالرغم من أن اليونانية وفدت تفيض قوة وعظمة بينما اليهودية عبرت عن الضعف والاستسلام وأطلق على دولة يهوذا الممتدة

بين جبال لبنان شمالا ومصر جنوباً (سوريا الجوفاء) Coelesyrien Andromac os تفرقة بينها وبين سوريا العليا وعين الاسكندر « أندروما خوس حاكما عليها واتخذ مدينة السامرة عاصمة له .

إلا أن هذا التعيين لم يلق قبولا عند السامريين الذين وجدوا فى اختيار السامرة قاعدة للحاكم اليونانى تكريماً لليهود خصوم السامريين وأعداؤهم الألداء ، لذلك ثاروا على « اندروما خوس » واعتقلوه وألقوا به فى النار فى ربيع عام ٣٣١ق.م. فأثار هذا العمل حفيظة الاسكندر وغضب غضباً شديداً وقرر أثناء عودته من مصر المبادرة إلى السامرة لينتقم من هؤلاء الذين سولت لهم أنفسهم اقتراف هـــذا الاثم العظيم فقتلهم شر قتله وعين حاكماً جديداً وهو « ميمنون CoumMe » كما اتخذا من مدينة السامرة وطناً للمقدونيين وأمعن فى احتقار السامريين وبخاصة لما علم أنهم أعداء لليهود وأغاظه أحسن معاملة اليهود كما أغدق عليهم كثيراً من العطايا مما زاد فى حقد السامريين عليهم .

واشتهر الاسكندر باحترام عبادات وتقاليد الشعوب التى غزا بلادها من اليونان حتى الهند ومن أثيوبيا إلى بحر الخزر . ففى مصر قدس « أبيس » و « آمون » وفى بابل آلهة الكلدانيين فقد كان حريصاً على قيام دولة عالمية تحت صولجانه إلا أن منيته عاجلته شاباً وهو يعمل فى سبيل تحقيق هذه الأمنية وكان ذلك عام ٣٢٣ دون أن يترك وريثاً لأملاكه أو أفكاره لذلك عمت الفوضى البلاد التى فتحها ودبت فيها الخصومات بين قواده وقـــد كان فى استطاعتهم المحافظة على الدولة المقدونية لو اتحدوا إلا أن الأنانية غلبت على خلافائه فقسمت الدولة المقدونية إلى دويلات كل ولاية تحت إمرة حاكم خاص . ففى مصر البطالمـة حيث تجـــد بطليموس الأول « سوتير Soter » وقد نجح فى ضم « سوريا » الجوفاء « كوليسيرين » وإقليم يهوذا إلى مملكته ثم هاجم أورشليم واستولى عليها وساق كثيرين من سكانها أسارى إلى مصر من بينهم عدد كبير من السامريين .

إلا أن حليف بطليموس واسمه « أنتيجونوس Antigonos » كان يطمع فى

التغلب على سائر حكام أجزاء الإمبراطورية المقدونية ويبعثها بعثاً جديداً تحت حكمه وبعد عدة سنوات قضاها في الاستعداد للحرب نشبت معركة « غزة » في ربيع عام ٣١٢ ق . م . بين ابن « أنتيجونوس » واسمه ديمتريوس Demetrios » وبين بطليموس وقد أبلى فيها أحد اللاجئين إلى بلاط بطليموس واسمه « سلويكوس Seleukos » بلاء حسناً فاعتبر تاريخ موقعة « غزة » بدأ تقويم جديد يعرف باسم التقويم السلوقي أو اليوناني واتخذه اليهود أيضاً تقويماً لهم واستخدموه زمناً طويلا ، وقد اضطر » ديمتريوس » بسبب الهزيمة الفادحة التي لحقت به في غزة إلى الفرار شمالا فمكن المنتصر من احتلال جميع البلاد لكن لم يمض زمناً طويلا حتى وحد « انتيجونوس » وابنه « ديمتريوس » جيوشهما واستعدوا لشن هجوماً خاطفاً على بطليموس وقد تحقق للوالد وابنه ما أراداه واضطرا بطلموس إلى التراجع فخرب الحصون القائمة في المدن الساحلية والداخلية مثل « عكا » و « يافا » و « غزة » و « السامرة » و « أورشايم » حتى لا يستخدمها العدو حصوناً يحتمي فيها وظل حال إقليم يهوذا والأراضي الأخرى التابعة لإقليم « سوريا الجوفاء — كوليسيرين » مضطرباً عدة سنوات حتى خر « انتيجونوس » قتيلا في موقعه « أبسوس Ipsos» بآسيا الصغرى صيف عام ٣٠١ ق . م . إذ التحم فيها بالقادة الأربعة «بطليموس» و « ليسماخوس Lysimachos » و « كسندر Cassander » و « سيلويكوس Seleukos » وقد قسم هؤلاء الأربعة الدولة المقدونية فيما بينهم فحصل بطليموس على مصر والبلاد المتأخمة لها . أما « سيلويكوس » فبسط سلطانه على معظم آسيا حتى نهر السند وفارس . وهكذا نجد إقليم «يهوذا» يصبح خاضعاً لدولة بطليموس. أما اليهود في المدن البابلية — والفارسية فقد خضعوا لحكم « سيلويكوس » . وبلغ من تسامح مصر أن عينت كبير حاخامي اليهود في إقليم يهوذا إلى جانب رئاسته الدينية جابيا للضرائب وحاكما سياسياً . وأدرك بطليموس الأول أن الاسكندرية التي أسسها الاسكندر واتخذها لأول مرة الملك المصري المقدوني عاصمة له في حاجة إلى سكان وقرر ترغيب اليهود من سكان الأقاليم المجاورة في استيطانها مستغلا حالة

الفوضى والاضطراب التى عمت إقليم يهوذا وما جاوره بسبب حروب «أنتيجونوس» واستقدم عدداً كبيراً من اليهود وأسكنهم الاسكندرية كما ساوى الملك بين هؤلاء اليهود والسكان المقدونيين فى الحقوق والواجبات وهكذا نشأت جالية يهودية مصرية ولم تقتصر إقامة اليهود على الإسكندرية بل انتشروا كذلك فى مدن مصرية أخرى امتدت حتى إقليم برقة .

وحذا حذو بطليموس فى مصر « سولويكوس » مؤسس الدولة السلوقية بخاصة فى فارس حيث حصل أيضاً على شمال سوريا وشيد هناك « أنطاكية » حوالى عام ٣٠٠ ق . م . واتخذها عاصمة له وحاول أن يعمرها وغيرها من المدن التى شيدها بالسكان فنقل إليها كثيرين من اليهود فوفدوا عليها رغبة أو رهبة كما جاء بهم من بابل وفارس ومنحهم نفس الحقوق التى يتمتع بها المقدونيون فى تلك البلاد .

وهكذا نجد يهودا يستوطنون بلاداً ويتعايشون مع سكان يونانيين مقدونيين ونجد يونانيين مقدونيين يستوطنون بلاداً ويشاركون قوما من اليهود فقامت على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط موانى جديدة وجددت أخرى قديمة تطلق عليها أسماء يونانية وينشط خلفاء الاسكندر إلى تحقيق أمنيته الخاصة بمزج الشرق والغرب وكان الخلفاء فى تخطيطهم هذا يخضعون للوضع والظروف السائدة فى الشرق والغرب وأصبح إقليم يهوذا محاصراً من جميع الجهات بسكان يرطنون اليونانية كما أصبحت اللغة السائدة فى المستعمرات الفلسطينية هى اليونانية كذلك الحال مع الأخلاق والعادات فضائلها ورذائلها . إلا أن فقر إقليم يهوذا جعله زمناً ما إقليماً غير مرغوب فيه كما نظر اليونان إلى يهوده نظرتهم إلى المنبوذين وظل الإقليم وسكانه بعيدين عن التطور الجديد الذى طرأ على المنطقة كما أن حياة الاستعباد ومصادرة الحريات وتحديد العبادات والحجر على الأفكار التى يحياها اليهود وقتذاك حالت دون ظهور شخصية قيادية تطلق الحرية المكبوتة وتفك أغلال الكلمة والأمال الحبيسة لذلك نجد اليهودى الخاضع لجميع هذه الظروف يتطلع إلى الخارج منتظراً مجىء « المخلص » الذى يأخذ

بيده من حياة الاستعباد إلى حياة الحرية وهذ « المخلص » ليكن من بابل أوفارس أو أى بلد آخر . إن وضع اليهودى فى إقليم يهوذا حال دون اتصاله ببلاد العالم الخارجى وذلك لأن بابل وفارس تخضعان لحكم البيت السلوقى العدو اللدود لبطليموس .

إلا أن الشعب الذى يعتمد فى سبيل خلاصة أو تطوره على غيره قصيرة ولا شك إلى الفناء لعجزه عن خلق مقومات كيانه وتطوره .

وفى هذه الفترة الحرجة فى تاريخ اليهود ظهر « المخلص » المنتظر الذى طالما انتظره اليهود أعنى « شمعون القانونى » بن « أونياس » الأول والذى ذاعت شهرته وعلت مكانته فى الفترة الممتدة ما بين ٣٠٠ — ٢٠٠ ق. م. تقريبا وقد كان الحاخام الأكبر الوحيد الذى ينتمى إلى بيت « يشوع » أو بيت « يصدق » وكرس حياته للمحافظة على معنويات اليهود كما أعاد بتصريح من الملك الحاكم تشييد أسوار أورشليم التى هدمها بطليموس الأول واهتم كذلك بتوفير المياه للمدينة وبخاصة بعد أن تشدد اللاويون فى كثرة الغسل والطهارة لإقامة الفرائض الدينية ونجح « شمعون » فى حفر نبع تحت المعبد وأوصله عن طريق قناة تحت الأرض بنبع « إيتام Etam » بالقرب من أورشليم ، وهكذا أمن المدينة غائلة العطش لو حاصرها العدو . وتوفى « شمعون » وترك طفلين فتاة اقترنت بشخص يدعى «طوبيا » وولدا يدعى «أونيا Onia » (اسم جده) وتعرضت بلاد يهوذا وما جاورها من البلاد لحروب دائمة بين السلوقيين الثانى والثالث والرابع وبين كل من بطلميوس الثانى والثالث فى سبيل الاستيلاء على «سوريا الجوفاء — كاليسيرين» إلا أن — يهوذا وسوريا الجوفاء ظلتا تابعتين لمصر . وحدث أن « سيلويكس الثانى — كالينيوكس Kallininkos حاول تأليب سكان تلك الإقاليم على مصر لنزعها منها ونجح فى اتخاذ الحاخام الأكبر « أونياس الثانى » مساعدا له فامتنع هذا الحاخام عن تسديد الضرائب التى كان يجبيها لمصر وإن كانت فى الواقع ضرائب رمزية فقط تدفع سنويا لبطلميوس فكان من بطلميوس الثالث « اويرجيتيس Euergetes » إلا أن حذر اليهود من

مغبة عملهم هذا الذى يتم عن العصيان والانسلاخ عن مصر ، إلا أن نصحه ذهب مع الريح فهدد اليهود بتقسيم إقليم يهوذا وتوزيعه بين عدد من الأجانب وأرسل إلى اليهود مندوبا خاصا يدعى «اثنيون Athenion» يبلغهم هذا الانذار فاستولت الحيرة على اليهود وحاول يهود أورشليم اقناع الحاخام الأكبر الإقلاع عن موقفه والعودة إلى صوابه إلا أن « أونياس » رفض التراجع وصمم على موقفه وفى هذه الفترة الحرجة ظهر رجل صلب العود قوى العزيمة اسمه « يوسف » وهو حفيد الحاخام الأكبر الجد « أونياس » وأبوه « طوبيا » الذى اقترن بابنة «أونياس» الأكبر وعارض « يوسف » خاله الحاخام الأكبر والزعيم السياسى فى موقفه هذا من مصر ولم يكد يسمع بوصول مندوب بطلميوس حتى سارع إلى أورشليم وهاجم خاله هجوما عنيفا لأنه باصراره على عدم دفع الضرائب الرمزية سيعرض اليهود لأكبر كارثة وظل الحاخام الأكبر مصراً على موقفه فما كان من « يوسف » إلا أن طلب السفر إلى الاسكندرية لعرض المسألة على بطلميوس والقيام بدور الوسيط فوافق أونياس على سفره إلى مصر فجمع يوسف اليهود فى ساحة المعبد وعرض عليهم الأزمة المستحكمة بين خاله وبطلميوس واحتكم « يوسف إلى اليهود فى تمثيله وإنقاذه من النكسه التى قد تقضى عليه ومنحه الشعب ثقته ونادى به زعيما مفوضا عنه وكان ذلك حوالى عام ٢٣٠ ق. م. فما كان من « يوسف » إلا أن أولم وليمة كبرى للمندوب المصرى الممثل الشخصى لبطليموس وهو «أثنيون» وقدم له كثيرا من الهدايا ورجاه أن يبلغ بطليموس أنه سيحضر قريباً إلى مصر ومعه الضرائب المطلوبة . ولم يكد نائب بطليموس يترك أورشليم عائدا إلى مصر حتى شرع يوسف فى اتصالاته بأغنياء السامريين من أصدقائه ورجاهم إمداده بالأموال المطلوبة فضلا عن أنه فى حاجة إلى أن يظهر فى مصر عندما يمثل أمام بطلميوس بالمظهر اللائق فهو فى حاجة إلى ملابس فاخرة ومطية بعض الأموال الخاصة لإقامة الولائم . وقد لجأ يوسف إلى السامريين لأنهم كانوا تجارا وأحسن حالا من سكان يهوذا الذين كانوا يعيشون على الزراعة .

ولما عاد « أثينيون » إلى مصر اتخذ الإجراءات للحفاوة بـ « يوسف» فأعد له القصر استقبالا عظيما كما ازداد بطلميوس اشتياقاً لملاقاته والاحتفاء به واتفق وصول يوسف مع الاجتماع العام فى القصر الملكى لسائر موظفى الضرائب لتوريد ما جمعوه وكان قليلا وقد أدرك يوسف هذا من قبل فضاعف المبلغ المطلوب من اليهود عادة فضلا عن الهدايا الكثيرة فاستولت الدهشة على موظفى الضرائب فى مصر والذين كانوا ينظرون إلى اليهود على أنهم فقراء ومعدمون وطالب بطلميوس يوسف بتقديم الضمانات الكفيلة للوفاء بالضرائب مستقبلا فأجابه يوسف أيضمنه خير اثنين فى العالم الملكة والملك فأعجب بطلميوس بنباهة يوسف وعينه جابياً للضرائب من سائر مدن سوريا الجوفاء (كوليسيرين) وفينيقيا فاستجاب يوسف إلا أنه رجا بطلميوس أن يمده بنحو ألفى جندى عوناً له لجباية الأموال ، فحقق له بطلميوس رغبته وهكذا نجد يوسف وتحت إمرته جيش يمكنه من أن يكون الحاكم الحقيقى لتلك البلاد وحدث مرة فى غزة وغيرها إن السكان اليونانيين امتنعوا عن دفع الضرائب فاستولى يوسف على أملاكهم وصادر أموالهم لحساب ملك مصر .

وظل يوسف فى هذا المنصب نحو اثنين وعشرين عاما جمع خلالها ثروات طائلة وسلطانا واسعاً وبعد وفاة بطلميرس أوريجيتس خلفه بطلميوس الرابع « فيلوباتور Philopator » (٢٢٢ — ٢٠٦ ق . م .) فاحتفظ بيوسف وأبقاه فى منصبه . وفى عهد هذا الملك دب الضعف فى مصر فانتهز الملك السلوقى « أنطيوخوس Antiochus » هذه الفرصة واستولى عام ٢١٨ ق . م . على « كوليسيرين » وسماريا إلا أن أقليم يهوذا وأورشليم ويحكمها ابن طوبيا وهو يوسف ظلا مخلصين لمصر . ثم دار الفلك دورته وعاد النصر محالفا مصر وهاجم بطليموس فيليباتور الخصم العنيد ودحره بالقرب من « نفيا Naphia » واضطره إلى التراجع إلى أنطاكية وعادت « كوليسيرين » ثانية إلى أحضان مصر وهكذا كان هذا النصر المصرى نصراً ليوسف أيضا الذى ظل فى منصبه حاكما على يهوذا وأورشليم باسم ملك مصر .

وبقاء يوسف فى منصبه وعلاقته الحسنة مع مصر ومهارته فى جباية الأموال أثر كل هذا تأثيرا كبيرا فى المجتمع اليهودى إذ أثرى ثراء فاحشا وبخاصة أولئك اليهود الذين على صلة بيوسف وذهب يوسف بعيدا فآثر أبناء ملته على غيرهم فعينهم جباة للمال وكان كل يحصل حسب هواه فارتفع مستوى الحيـــاة اليهودية وأقبلت الدنيا على اليهود . وإذا أضفنا إلى هذا الثراء ما يترتب عليه من أثر بالغ فى الروح المعنوية بسبب جيش مصر الذى كان هناك تحت أمرة يوسف واستغله فى سبيل القضاء على نفوذ وسلطان السكان الجوثيم أعنى غير اليهود من فلسطنيين وفينيقيين وآومثين ويونانيين ومقدونيين أدركنا مدى الغرور الذى ملأ اليهود لشعورهم بأنهم السادة الأقوياء وليسوا العبيد الأذلاء ، فاليهود باتصالهم بمصر وملك مصر والشعوب الأجنبية الأخرى أداروا ظهورهم لمستواهم الوضيـــع فهجروا الأحياء القذرة التى كانوا يحيون فيها إلى منازل تحاكى منازل اليونان والمصريين وغيرهم من حيث البناء والزخرفة وقد نقل يهود إقليم يهودا وأورشليم كثيراً من ضروب الثقافة عن يهود الإسكندرية الذين استقروا منذ قرن أو أكثر فى مصر وتثقفوا الثقـافة المصرية الهللينية وبالغ اليهود فى تقليد اليونانيين حتى فى عادتهم كما أن الثراء الذى وقع على يوسف جعله لا يتورع عن السير فى طريق الغواية فضـــحى بحياته العائلية وأقام الأعياد لإله الخمر اليونانى « ديونيوس **Dionyios** » وذهب انحراف المجتمع اليهودى بعيدا فشك اليهود فى عقائدهم الدينية وأحكامهم الشرعية مستنـكرين صحة الرأى القائل إن الله حرم على الإنسان الأخذ بأسباب الحياة والتمتع بمباهجها وكيف يعتبر الله هذا الحرمان تقربا إليه وعبادة ؟ وهكذا نجد آراء « إبيقور **Epikur** » القائلة بالتمتـــع بالحياة والأخذ بأسباب الفرح والمرح تجد صدى عميقا فى نفوس اليهود سواء فى مصر أو فى يهوذا أو أورشليم . ففلسفة أبيقور هذه والتى يعبر عنها أحيانا بفلسفة دعنا نفرح أو « جود يا موس **Gaudiamus** » قد تـكون هى التى نجد صداها فى سفر الجامعة وغيره من أسفار الحـكم والأمثال والنتيجة المحتومة لهذا الانهيار الخلقى وبخاصة فى أسرة يوسف أن أبناءه السبعة من زوجته الأولى وابنه غير الشرعى المسمى

« هيركانوس Hyrkanos » كانوا دائما فى نزاع مستمر السبعة ضد الأصغر « هيركانوس Hyrkanos » الذى امتاز على إخوته الآخرين بالشيء الكثير من الذكاء والدهاء حتى أحبه والده وفضله على سائر إخوته وحدث أن رزق الملك بطلميوس فيلوباتور بابن هو بطلميوس الخامس « إيفانيس Epiphanes » وأوفد حكام الولات المصرية المختلفة سواء فى أفريقية أو آسيا وفودا لتهنئة الملك بوليده الجديد كما أرسل يوسف إبنه « هيركانوس » ممثلا له فى تقديم تهانيه إعتقاداً منه أن « هيركانوس » هو خير من يحقق هذه الرسالة وقد نجح الغلام فعلا فى سفارته وكسب عطف الملك وحبه فأثار هذا حفيظة أخوته الذين أجمعوا أمرهم على التخلص منه واغتياله فأعدوا له كمينا لتحقيق أمنيتهم عند عوته إلا أن هيركانوس تصدى لهم مع حرسه الخاص وقتل اثنين من إخوته السبعة واختلف « هيركانوس » مع والده فترك أورشليم وعاد فيما يرجح إلى الإسكندرية .

وحوالى عام ٢٠٨ ق . م . توفى يوسف حفيد شمعون القانونى وحل محله ابنه هيركانوس لمكانته من ملك مصر فازداد حقد إخوته عليه فتألبوا عليه واضطر إلى الذهاب إلى الإسكندرية ومن سوء حظه إن ملك مصر الذى كان يقدره ويحبه توفى عام ٢٠٦ ق.م. فانتهز انطيوخوس Antiochos حاكم سوريا و « فليب » حاكم مقدونيا الفرصة لتقسيم مصر وأملاكها فيما بينهما . وانضم إلى أنطيوخوس أبناء يوسف حقدا على مصر وأخيهم « هيركانوس » وفتحوا أبواب أورشليم لملوك سوريا فاشتهروا بالخيانة ليهوديتهم وهكذا سقطت يهوذا وأورشليم فى قبضة السلوقيين عام ٢٠٢ ق.م. وتعرض اليهود فى يهوذا وأورشليم لويلات الحرب والسبي والتشريد هذه الحرب التى اشتعلت بين السلوقيين والبطالمة . وقد أدت هذه الأوضاع إلى خلق جماعة من اليهود الموالين لليونانية أو الهللينية وكانوا من أغنياء اليهود وعظمائهم لذلك كانوا حزبا قويا انضم إليه شخص يدعى « يشوع » وهو ابن الحخام الأكبر وكانت ليشوع هذا أو كما تسمى ايضا « يسون Jason » مكانة مرموقة بين رجال الدين فكسب هذا الحزب نفرا من الحاخاميين الذين يدعون أنهم من

سلالة هرون كما تزعمه أيضا بعض أبناء يوسف الذين بقوا على قيد الحياة واحفاده وأبناء طوبيا وتطرف أعضاء هذا الحزب فى عدائهم لخصـــومهم وولائهم للهيلينية فتنكروا للشريعـة اليهودية وعادات اليهود وتقاليـدهم وذهبوا بعيدا ففـكروا فى القضاء على الشريعة ليسهل عليهم كسب اليهود بعد ذلك إلى الهللينية ثقـافة وجنسا وعقيدة اعنى تحويل اليهود إلى يونانيين وثنيين .

وقد عارض هذا الاتجاه عدد من اليهود المحافظين وكونوا الجماعة المعروفة فى التاريخ اليهودى العقائدى « الحسيديم » الذين يعارضون التفكير فى تحوير أى شىء دينى لإيمانهم الشديد بقدسيته ومن زعماء هذه الطائفة « يوسف بن يوحنان » أحد أبناء أورشليم وكذلك يوسف بن يوعيزر وقد أسس كل منهما مدرسة دينية أحدهما اهتمت بالشريعة من الناحية النظرية وأخرى من الناحية التطبيقية واحتـدم النزاع بين اليهـود التقدميين المؤمنـين بالآراء والمذاهب اليونانية الهلينية وبين الرجعيين المحافظين واستخدم التقدميين القوة فى سبيل فرض آرائهم الثورية إبان حـكم « انطيوخوس إيبفانيس » (١٧٥ — ١٦٨ ق.م.) على سـوريا الذى هالته حالة الفوضى فى المجتمع اليهودى فناصر التقدميين دعاة الهللينية على خصـومهم اليهود المتعصبين .

ولم يقف الأمر عند هذا بل رجا أنصار الهللينية الملك منح اليهود الذين اشتركوا فى التدريبات الرياضية اليونانية حق المساوة مع المواطنين أصحاب الحقوق الـكاملة أعنى يصيرون « أنطيوخيين » أو « مقدوونيين » أو الحقوق الكاملة للمواطن الذى له الحق فى المشاركة فى سائر أوجه النشاط اليونانية العامة وذلك لأن هـذه الألعاب الرياضية اعتبرها اليونانيون وقتذاك واجباً هاماً من ضروريات الحيـاة و المشاركة فيها تـكسب غير اليونانى الحق فى أن يتمتع بسائر امتيازات المواطن اليونانى وقد يصل إلى مرتبة الإشراف وهـكذا نجد ساحات الألعاب الرياضية تقام فى أورشليم ويشترك فيها بعض اليهود ، والتدريب على هذه الألعاب الرياضية مثل القفز والمصارعة ورمى القوس وغيرها يتطلب من الذى يمارسها أن يتجرد من ملابسه وهذا يكشف

عورة اليهودى والختان الذى يميزه عن سائر الشعوب وهنـــا يتعرض اليهود الذين يشاركون فى الألعاب الأولمبية إلى سخرية اليونانيين مما اضطر اليهودى إلى إجراء عملية جراحية تخفى ولو ظاهريا هذا الختان الذى يثبت يهوديته كما أن الشبان الذين كانوا يؤدون بعض الخدمات فى المعبد اضطروا إلى تركها لاهتمامهم بهذه الألعاب الرياضية .

وقد آلم هذا التطور فى المجتمع اليهودى المتدينين منهم إلا أنهم كبتوا غيظهم بالرغم من التمادى فى الانحراف عن الشريعة اليهودية وبخاصة اشتراك اليهود فى هذه الألعاب وتقديمهم القرابين إبان الاحتفال الأولمبى لإله الألعـاب الأولمبية إلا وهو « هيروقليس Herakles » وهذه ولا شك طقوس وثنية وتقديس لصنم من الرخام جعلت الانفجار الثورى قاب قوسين أو أدنى ضـد اليونانيين لذلك سارع الملك « أنطيوخوس » ، وهاجر أورشليم ناقماً على اليهود وشريعتهم وسقى أرضها بدمائهم ولم يرحم ذكراً أو أنثى شيخاً أو وليداً ، وإمعاناً فى احتقار هذه العقيدة اقتحم المعبد وجرده من كل ما هو ثمين فيه مثل المذبح الذهبى والشمعدان وللموائـد وسائر الأوانى الذهبية ويلاحظ أن الحاخام الأكبر الذى عينه « أنطيوخوس » الا وهو « مينيلاوس Menelaos » كان هو المرشد للملك وقاده إلى هذه الأمـكنة ومكنه من الاستيلاء على كنوز المعبد وأدواته وشاع فى ذلك الوقت أن أنطيوخوس شاهد فى الهيـكل صنما لرجل له لحية طويلة يجلس على حمار وفى يده كتاب واعتقد أن هذا الصنم يمثل موسى الذى جاء إلى اليهود بشريعة مستبدة تبعد بين اليهود وسائر البشر فتنشر البغضاء والشر وقد وجدت هذه الفـكرة طريقها إلى اليونان والرومان الذين اعتقدوا أن اليهود يقدسون فى شريعتهم الحمار . ويذكر عن أنطيوخوس أيضاً أنه شاهد فى المعبد يونانياً ينام على سرير وقص على الملك أنه جرت عادة اليهود أن يأتوا كل عام بيونانى ويطعموه زمناً ما ثم يذبحوه ويأكلوا أمعاءه كأنهم يقسمون بكراهية اليونان والعمل على إبادتهم فـكانت هذه الشائعات من أقوى الأسلحة التى استخدمت ضد اليهود .

وهكذا بسط الحزن جناحيه على أورشليم مما اضطر اليهود إلى الهرب منها وأصبح الحاخام راعياً بلا رعية ، وقرر (انطيوخوس) تحدى آله إسرائيل والتغلب علية فأصدر الأوامر إلى سائر المدن اليهودية يدعو اليهود إلى ترك يهوديتهم وعبادة آلهة اليونان فقط كما طالب باقامة المذابح والنصب والتماثيل اليونانية لتحقيق هذه الرغبة وبالغ أنطيوخوس فى اضطهاد اليهود فطالبهم بأكل اللحوم التى تحرمها شريعتهم وبخاصة الخنزير .

وتعتمد الشريعة اليهودية على ثلاثة عناصر الختان ، وتقديس السبت والأعياد، وأخيراً عدم أكل طعام غير اليهود وكلفت حكومة انطيوخوس موظفيها بضرورة الحرص على مراقبة تنفيذ أوامر الحكومة القاضية بمنع اليهود من مباشرة تعاليم شريعتهم وطقوسهم الدينية وكل يهودى يضبط متلبساً بمخالفة هذه الأوامر يحكم عليه بالاعدام .

وبدأ (انطيوخوس) بالمعبد فى أورشليم فأرسل أحد كبار أتباعه إليه فحول الهيكل إلى مكان لعبادة «زوريس» وقدم خنزيراً على المذبح قرباناً ورش دمه على المذبح وعلى قدوس الأقداس وطبخ لحم الخنزير وصب الماء الذى طبخ به على صفحات العهد القديم أما لحم الخنزير المطبوخ فقد طلب إلى الحاخام الأكبر (منيليوس Menelaos) وغيره من اليهود المتأثرين بالهيللينية أكله . أما التوراة المحفوظة بالمعبد فقد أحرقت لأنها تدعو إلى إشاعة البغضاء بين الناس لذلك طهوها بالنار وحرقها ثم وضعت صورة (زوريس) على المذبح لتقدم إليها القرابين مباشرة وكان ذلك فى ١٧ تموز — يولية — ١٦٨ ق . م . وقد وصلنا المزموران ٤٤ و ٧٤ وهما يسجلان هذه المعاملة التى لاقاها اليهود واليهودية ولم يقف الأمر عند هذا فقد أصدر «أنطيوخوس » مرسوماً يقضى بإعدام كل شخص يعلن أنه يهودى كما حرم على اليهود أن يطلقوا على أنفسهم يهودا .

* * *

وفي هذا الجو العاصف الداكن ظهرت أسرة اشتهر أفرادها بالتدين والتمسك بالشريعة وأحكامها وهى تعرف بإسم أسرة الحشمونايم او المكابيم ربها رجل خط الشيب رأسه وخمسة أبناء فدائيين أعلنوها ثورة عارمة على الكفر والإلحاد وآلوا على أنفسهم إلا أن يذودوا عن عقيدة الآباء والأجداد التى خلفوها لأحفادهم . أما الوالد فيدعى «متاتيا هو » اى عطية الله ابن يوحنان بن شمعون حشموناى وهو من نسل هرون كان يقيم فى أورشليم ولما استفحل فيها الخطب وزاد الاضطهاد هجرها إلى « مودين Modin) الواقعة على بعد واحد وعشرين كيلومترا شمالى أورشليم وأخذ وأولاده الخمسة يعملون جادين فى رفع معنويات اليهود التى كانت قد انحطت وفقدت كل أمل فى استرداد كل ماضاع من حرية وعقيدة وكرامة. وكان هؤلاء الأبناء الخمسة يحملون ألقاباً آرامية رنانة مثل (يوحنان جدى) و (شمعون طرسى) و (يهودامكابى) و (اليعازر أفران) و (يوناثان أفوس) وقد وجد هذا البيت الحشموناى كثيرين من الأنصار الراغبين فى الثأر لأنفسهم ولعقيدتهم وآلوا على أنفسهم النصر أو الموت وكان هذا هو شعار (متتياهو) .

وحدث أن أحد الموظفين المكلفين بمراقبة اليهود ومعاقبة الذين تثبت عليهم تهمة التمسك بالعقيدة اليهودية والانحراف عن الهللينية واسمه (إبليس Apelles) جاء إلى (مودين) والتقى بـ (متتياهو) وطالبه بوجوب مراعاة الأوامر الرسمية الخاصة بالإقلاع عن اليهودية واحترام الهللينية فأجابه (متتياهو) غيرهياب أو وجل (لو آمنت جميع الشعوب التى تقيم فى مملكة (انطيوخوس) ملك سوريا بالهللينية وانحرفت عن اليهودية دين الآباءوالأجداد فإنى وسائر الانصارسنظل أوفياءاليهودية وإذا تجرأ يهودى وتقدم إلى المذبح لتقديس (زويس) سأقتله إلى جوار المذبح وهجم اولاد (متتياهو) بالمدى على (أبيليس) وأعوانه وقتلوهم كما هدموا المذبح فكانت هذه الحادثة إشارة الثورة وتحول اليهود من السلبية والاستسلام إلى المعركة،وصاح متتياهو) : من يؤمن بشريعتنا يتبعنى فانضم إليه سائر سكان (مودين) وما جاورها واعتصموا جميعهم بجبل إفرايم كما انضم إليهم أيضاً نفر من الحسيديم وأخذ عدد أفراد

المقاومة يتزايد يوماً بعد يوم فاندفع متتياهو إلى مختلف الجهات محطما المذابح الهلينية وإذا ما التقى بجماعة من الجنود السوريين هاجمهم وكبدهم بعض الخسائر وهكذا اخذ متتياهو يباشر حرب الكر والفر ضد العدو واحتمى بالجبال .

ولما وافى القدر المحتوم عام ١٦٧ ق. م. متتياهو عين ابنه الأكبر شمعون مستشارا — وأسند قيادة الحرب إلى ابنه الصغير « يهودا مكابى » وكان من خيرة الرجال العسكريين الذين عرفهم الشعب اليهودى . وفى عام ١٦٦ ق .م . التحم « يهوذا مكابى » ولأول مرة مع فرقة من الجنود السوريين تحت قيادة « أبولونيوس Apollonies » وحالف النصر فيها «يهودا» وقتل ابولونيوس إلا أن ملك سوريا أنطيوخوس أرسل جيشا آخر بقيادة هيرون Heron لضرب يهودا وجيشه وكان جيش هيرون يضم عددا من اليهود المناصرين للهلينية وأرشدوا جيش «هيرون» إلى أقصر الطرق وأصلحها للوصول إلى يهوذا وما كاد رجال يهوذا يبصرون هذا الجيش حتى دب الرعب فى صفوفهم وكادوا يولون الأدبار لولا أن يهوذا خاطبهم قائلا اذكروا الكنوز الثمينة التى ستدافعون عنها اذكروا أبناءكم اذكروا حياتهم اذكروا عقيدتنا فكان لهذه العبرات وقع ساحر فى نفوسهم وكروا كرة رجل واحد على جيش « هيرون » عند « بيت هورون » ودحروه وأدرك ملك سوريا انطيوخوس أنه أساء تقدير قوة خصومه لذلك عاود التفكير فى الثأر لجيشه فقرر التخلص نهائيا من سائر اليهود المقيمين فى مملكته ولتنفيذ هذه الخطة رأى أن يحشد أولا جيشا تحت قيادة « لزياس Lysias » ويسير به إلى يهوذا ويقضى عليه وإذا تحقق له هذا النصر تحول إلى البقية الباقية من اليهود وآثارهم وطهر البلاد منهم نهائيا وفيما يتعلق بأورشليم رأى أن ، يهدمها ويزيلها من الوجود ويأتى بجماعات أخرى غير يهودية ويورثهم هذه البلاد ولم يستثن الملك انطيوخوس من عملية الإبادة هذه اليهود الموالين للهلينيه وله . ولم يكد يعلم اليهود بما بيته لهم انطيوخوس حتى انقلب خوفهم شجاعة وترددهم إقداما وذلك لأنه لم يبق أمامهم إلا الدفاع عن أنفسهم (وساعد على رفع الروح المعنوية بين اليهود ظهور كتابين هامين إلا وهما « سفر دنيال » و «سفر استير»

والسفران صدرا عن هيئتين إسرائيليتين مختلفتين فسفر دنيال وضعته جماعة الحسيديم الذين يؤمنون بأن المصيبة التى أصابت اليهود حلت بهم بسبب انحرافهم الدينى ولو تابوا وأنابوا فسينصرهم الله فالسفر أقرب إلى الروح الصوفية والإيمان بالمعجزات منه إلى التاريخ وسير الآباء الأولين .

أما سفر استير الذى يخلو حتى من ذكر اسم الله فقد وضع لغير رجال الدين ، فالمؤلف يكتفى بذكر قصة اضطهاد دينى فى قديم الزمان وفى بلاد فارس ثم انتهت المؤامرة بانتصار اليهود وهزيمة خصومهم .

ثم نجد « ليزياس » ومساعديه يقودون جيشا قوياً ضد يهودا وأخذوا معهم تجار الرقيق والأغلال لشراء أسرى الحرب من اليهود بعد المعركة وجمع يهوذا المكابى رجاله واستعدوا لملاقاة العدو واجتمعوا أولا لإقامة صلاة وهناك جاءوا بالتوراة ونشروها بين الجنود وصاح يهودا فى رجاله أن « أنطيوخوس » يريد أن يمحو التوراة ويقضى على عقيدتنا ويحولنا إلى وثنيين فأشعل نار الحماس فى صدورهم وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وعين على كل قسم أحد إخوته وأعلن أن كل شخص حديث التأهل أو زرع كرامة أو لا يرغب فى القتال فلينصرف حسب تعاليم الشريعة وأقبل الهللينيون لمهاجمة يهوذا المكابى واختار قائد هذا الجيش السورى الليل بظلامه الدامس وقتا للهجوم واكتشف يهودا المكابى هذه الخطة فقرر إحباطها وذلك بالانسحاب ليلا سراً والتف حول العدو وقلب جيشه فى ظهره فلما هجم السوريون على اليهود لم يجدوا واحدا فاعتقد قائد الجيش السورى واسمه « جورجياس Gorgias » إن اليهود خافوا وهربوا فى الجبال وقرر أن يلاحقهم وفى الجبل انقض المكابى على السوريين من الخلف فأحرق معسكرهم وواصل الهجوم عليهم - ولم يكد يبزغ نور الصباح حتى تبين جورجياس أن اليهود يهاجمونه من الخلف فأصدر أمرا إلى عدد من جنوده بالصمود وخوض معركة انتحارية ضد المكابى الذى صاح فى جنوده « باسم الوطن والشريعة والمقدسات » أما أخوه الأصغر فأخذ يرتل بعض الآيات من التوراة ثم صاح المكابى « الله معنا » وأحرز يهودا نصرا على السوريين عند اماوس Emmaus وعاد اليهود

إلى «مودين» مركز تجمعهم ثانية . إلا أنهم توقعوا أن« ليزياس » الذى قد صدر له الأمر بإبادة اليهود قـد يعاود الـكرة عليهم ثانيـة وفى خريف عام ١٦٥ ق . أقبل «ليزياس» على رأس جيش آخر وعسكر عند« بيت صور» على بعد مسيرة خمس ساعات جنوب اورشليم إلا أنه فضل الانسحاب على الاشتباك مع اليهود فى معـــركة قد تكون نتيجتها هزيمة تنى هزيمة موقعة «اماوس» وهكذا بعد نحو ثلاثة أعـوام ونصف العام منذ اندلاع نيران الحروب بين الطرفين حل نوع من المهادنة وانتهـز المـكابى وأعوانه هذه الفرصة وانقضـــوا على اورشليم ليطهروها من رجس الجويم فحطموا التماثيل والنصب وكل مايتعارض مع الشريعة وتعاليمها وشيدو مذبحا جديداً عوضا عن الآخر الذى دنسه الجويم كما جاءوا للمعبد بآنية جديدة وقد استغـرقت عملية التطهير وإزالة النجاسة ثلاثة أسابيع ، وفى صباح ٢٥ كيسليف (نوفمبر ١٦٥ ق م ..) أقيمت حفلات التـكريم وطهارة المعبـد كما قـدمت القرابين وهـذا العيد يقام حتى اليوم ويعرف باسم عيد «حنوكا» أى «تقديس» أو تدشين وهـــو ثمانية أيام يضاء فيه شمعدان أو «منارة» ذو ثمانية أذرع فهو عيد النور ويضاء عادة كل يوم من أيام العيد ذراع «قنديل» تخليدا لذكرى انتصار اليهود على الجويم الوثنيين وقد شارك فى إحياء هذا العيد اللاويون بأناشيدهم وكذلك جميع سكان إقليم يهوذا وأبناء اورشليم الذين وضعوا الأنوار أمام منازلهم رمزا للتوراة التى يعـبر عنها الشعراء اليهود بالنور وقرر الإخوة الحشونايم فى اجتماع عقدوه مع البقية الباقية من أعضاء المجلس الأعلى إصدار قرار هام جدا للمستقبل ألا وهو اعتبار الأيام الثمانيـة ابتداء من يوم ٢٥ كسيليف (نوفمبر) أعياد طهارة العقيدة والمعبد .

ولم يقف الأمر عند هذا بل عاد المـكابى إلى تطبيق النظام القديم فى المعبد من حيث تعيين الـكهنة واللاويين وأقصى الذين انحرفوا واتبعوا الهلينية عن الخدمة وقد نتجت عن هذه المعاملة نتائج وخيمة إذ تجمع هؤلاء المعزولون وأخذوا يكيـدون للهيئة الجديدة أعنى للحزب الآخر وأدرك المـكابيون أن الجويم يستعـدون للانتقام والثأر فأخذوا يتحصنون وقد أدركوا أن هناك شعوباً أخرى أخذت تنضم وتعطف

على السوريين وأخذت هذه الشعوب تتململ من وجود يهود بين ظهـــرانيهم وقد أدركوا أن هؤلاء اليهود أخذوا يتربصون بهم الفرص لمـــد نفوذ المكابين وتحقيـــق مطامعهم الانتقامية التوسعية فنجد الفلسطينيين فى الجنوب الغربى الفينيقيين فى الشمال الغربى والعمونيين عبر الأردن كذلك السوريين والمقدونيين وسائر أفراد الجاليات الأخرى تتحد لمقاومة التوسع اليهودى وأكثر الشعوب حماسا ضد الطغيان اليهودى كان الآدوميون فى الجنوب وهكذا تطور وضع اليهود وضاع الأثر الذى تركه انتصار المكابين فى موقعتى «امباروس» و «بيت صور» ولم تتحقق أطماعهم التوسعيـــة فى استعباد الجويم والاستيلاء على أراضيهم وأصبح وضعهم شبيها تماما بوضعهم أيام نبوخذ نصر الذى إنقض عليهم وسباهم لـكى يقضى على عنصر المشاغبـة والاضطـراب فى الشرق الأدنى هذا حالهم أيام «انطيوخوس» فقد أصبح اليهود يعيشون فى جزيرة فى بحر من الأعداء الذين يتربصون بهم للتخلص منهم تأميناً لـكيانهم ، وقد تحققت هذه المخاوف عندما استعد «يهوذا المكابى» لتوجيه ضربة إلى الشعـــوب المجاورة فهاجم الأدوميين فى جنوب فلسطين وطردهم من ديارهم وبعد ذلك هاجم الأردن فأدخل المكابى الرعب فى قلوب جيرانه . ولم يكد يرجع المكابى من حملاته هذه إلى أورشليم حتى علم أو ادعى أنه علم أن اضطهاد الحق ببعض اليهـود المقيمين فى جهات كثرة سكانها من الهللينين أعنى اقليمى «جلعاد» و «بيسان» « والجليـــل » و « عكا » و «صور » و « صيدا » وغيرها فقد حدث أن اليهـود النازلين وسط اليونانيين أرسلوا إلى المكابى يطالبونه بالاستيلاء على هذه البلاد بحجة أنهم لا يتمتعون بحريتهم فأوسل «يهوذا المكابى» أخاه «شمعون» على رأس جيش صغير إلى الجليـل وتوجه هو وأخوه يوناثان إلى الأردن وبقية جيشه وشعبه تحت قيادة قائدين وأرسـله إلى غرب إقليم يهوذا لمواجهـة الفسلطينيين ونجح شمعون بحملته واستولى على الجليـل وجمع شمعون يهود الجليل وأجبرهم على الهجرة إلى إقليم يهوذا . أما يهوذا المكابى فقد هزم شر هزيمة أمام الجيش الأردنى الذى كان تحت امرة قائد سـورى يدعى تيموشاوس Timotheos وكان ذلك عام ١٦٤ ق . م . وفر المكابى وعاد مع من بقى

معه من يهود جلعاد إلى أورشليم وصادف إلى جاء بعد ذلك عيد الأسابيع فاحتفل اليهود به ثم خرج يهودا على رأس جيش محاولا الثأر لنفسه من الهزيمة التي لحقت به وبقائديه الذين تركهما لحماية البلاد من احتمال وقوع عدوان عليها وذلك لأن القائدين أرادا الحصول على نصر طنان رخيصا على الجيش السوري الذي كانت تحت قيادة «جورجياس Gorgias» ومعسكرا في «يمنيا» فدحرهما وأوقع الرعب في اليهود عامة لذلك أراد «يهودا» محو آثار هذه الهزيمة أولا ثم بعد أن يتحقق له هذا يعود إلى تنفيذ البرنامج الذي أعده لتوسيع رقعة إقليم يهوذا فأخذ يتربص الفرص لتنفيذ خطته هذه فانتهز الاضطرابات الداخلية في سوريا والإخطار المحدقة بانطيوخوس وانقض على الجيش السوري بقيادة «ليزياس Lysias» واضطر إلى الرضاء بالأمر الواقع إلا أن منازعات اليهود الداخلية والخصومات الحزبية وبخاصة تلك التي تناصر الهيلينية تعارضها اليهودية المتعصبة زعزعت المجتمع اليهودي وأدرك بهذا المكابي أن كفة اليهود الهيلينين أخذت ترجح وأدرك أن شريعته ومعبده في مهب الريح فسيج المعبد بسور شامخ وأقام عليه بعض الأبراج للدفاع عنه إذا ماهاجمه الجويم واعتقد المكابي أن الفرصة مواتية له لمهاجمة الجويم فحاصرهم وأعد العدة للقضاء عليهم ونجح نفر من المحاصرين في الهرب والاتصال بالملك السوري الجديد الا وهو انطيوخوس اوبياتور Antiochos Eupator وأخباره عن حقيقة الوضع في أورشليم فما كان من الملك إلا أن ارسل حملة لرفع الحصار عن المحاصرين وضرب اليهود المتمردين متى سنحت الفرصة وقد سنحت هذه الفرصة وذلك في ربيع عام ١٦٢ ق.م وهو عام سبت عام مقدس عند اليهود لازرع ولا عمل ولا مال والمكابيون يزعمون أنهم حماة الشريعة والشعب مضطر إلى التقشف وعجز المكابيون عن إدخال المؤن الضرورية للشعب او الجنود في القلاع التي يدافعون عنها .

فتقدم القائد السوري «ليزياس» في رفقة الملك الشاب «اوبياتور» على رأس جيش قوى أعد لضرب اليهود الضربة القاضية وتخليص الشرق من ويلاتهم وما كاد المكابي يبصر هذا الجيش وهذه العزيمة القوية لإبادته إلا وانسحب وحاول الاكتفاء

بالدفاع عن حصن العبد وبيت صور ألا أن قواته لم تستطع الوقوف أمام الجيش السوري القوي الذي اقتحم أورشليم واضطر المكابي إلى الوقوف ولم يمكنه الهرب وهناك عند بيت زكريا بالقرب من بيت صور تلقى اليهود الضربة الأولى فلم يتحملها المكابي وجيشه فهرب محتميا بحصن العبد إلا أن اليهود الذين كانوا في ذلك الحصن هربوا عن طريق ممرات سرية وهكذا تعرضت أورشليم لنفس الوضع الذي تعرضت له أيام نبوخذ نصر لكن شاءت الأقدار أن خلافا دب بين « ليزياس » وخصمه « فيليبوس Philippos » الذي جمع في فارس وميدياجيشا أراد به انتزاع أنطاكية من « ليزياس » فلما علم بهذا اضطر إلى نصح الملك الشاب بعقد صلح مع المكابي. عن أن يترك « ليزياس » العبد ويكفل للمكابي إقامة الشعائر الدينية اليهودية ولما يمض زمن طويل حتى عاد الشقاق ثانية بين اليهود أنفسهم من ناحية وبينهم وبين الأخوة المكابيين أنصارهم من ناحية أخرى وتزعم خصوم المكابيون — حاخام يدعى « يوياخيم Jojachin (وفي اليونانية) الكيموس Alkimos » وقد استغل هذا الحاخام وأنصاره استيلاء الأمير « ديمتريوس Demetrios » الذي كان رهينة في روما وهرب منها على الحكم وشرح له « يوياخين » كيف أن السلام لن يحل بالشرق ما لم يتخلص نهائيا من المكابيين والحسيديم مصدر الشر والفتن وأعداء السلام فانتهز « ديمتريوس » هذه الفرصة ليفرض سلطانه على اليهود ويخلص الشرق من ويلاتهم وهكذا نجد « ديمتريوس » يسير في طريق عمه من قبل إلا أنه لم يتعرض للدين بل عين حاخام أكبر جديدا لجمع البلاد ومنحه علاوة على السلطة الدينية سلطة أخرى سياسية وإدارية ولتنفيذ هذا القرار أو كل إلى رجل عسكري جبار يدعى « بكثيديس — Bakchides » وأمده بقوة عسكرية صغيرة وسيرة إلى أورشليم فلم يكد يعلم الأخوة المكابيون وأنصارهم بنبأ وصوله حتى لاذوا بالفرار إلى الجبال إلا أن الحسيديم رفضوا الحرب مع المكابيين اعتقادا منهم بأن الحاخام الأكبر من نسل هرون لذلك أقبل الحسيديم وكثيرون غيرهم على « بكديس » و « اللكيمدوس » وأعلنوا ولاءهم للنظام الجديد والمحافظة على السلام واستقرار الأمن وقد انضم إليهم

أعضاء المجلس الديني الأعلى » إلا أن الأمور تحرجت ثانية ونشبت حرب أهلية بين الطرفين عام ١٦١ ق .م. وانتهز « ديمتريوس » هـذه الخصومات وأرسل جيشا تحت قيادة « بـكتيديس » فطارد « يهوذا المـكابي » في كل مكان حتى اضطره إلى أن يخوض المعركة فالتقى بـ « بكشيديس » في أبريل عام ١٦٠ ق . م . عند ميت ذيتا وسحقه وجيشه وسقط المـكابي مدرجا بدمائه وبذلك انتهت أسطورة المـكابيين التي كان شعارها « أن دماء الشهداء تشفي الجروح » .

* * *

عصر الامراء الحشمونايم (٢٦٠-١٤٣ق.م)

لم يكد « يهودا مكابى يفارق الحياة حتى أحاطت الكوارث باليهود من كل ناحية فهددته المجاعة وحطمته المشاحنات الداخلية وفى هـذه الظروف حاول الأخوة الحشمونايم وهم يوناثان وشمعون ويوحنان «انقاذ اليهود من هذا الانحلال وتلك الفوضى التى ترددوا فيها مع محاولة وقف تقدم الهللينيين وأتباع « بخشيديس » إلا أن كل هذه المجهودات ذهبت مع الريح .

فقد لجأ الجشمونايم إلى تكوين حزب قوى يستطيع الصمود فى وجه الحزب الهللينى وحاول كل فريق الفتك بالآخر متى سنحت له الفرصة بالرغم من أن الهللينية كفلت الحزب الحشمونايم حرية العبادة وتأدية الطقوس الدينية واحترام المقدسات إلا أنهم بالرغم من ذلك ظلوا يحقدون على الهللينيين ويتربصون بهم الدوائر فقد عجزوا عن التخلص من غريزة الحقد والايقاع بغير اليهود أعنى بالجوييم فاليهود يبغضون عادات وتقاليد غيرهم ويذهبون فى بغضهم بعيداً حتى أنهم ينكرون على غيرهم الكفاءة والنبوغ هكذا تأمر التوراة وقول شراحها فى الجمارا والتلمود لذلك علق الحشمونايين كل آمالهم فى تحقيق أوامر الشريعة التى تأمر بعدم الاشادة بفضل الجوييم ولا تمنحهم اقامة على الأرض وتحرم على اليهودى أن يبيع للجوى شيئاً ثابتاً فى الأرض لكن يجوز البيع إذا هدم ما على الأرض ويقول ربى يهوذا يجوز البيع لغير اليهودى بشرط الهدم والازالة كما تحرم حتى الحديث عن جمال غير اليهودية أو اليهودى « على المكابى « يوناثان افوس Jonathan Aphus » ويذهب الحشمونايم بعيداً فيرجون منه ابادة اليهود الهللينيين لكى يحل السلام بالبلاد وكان « يوناثان » أضعف من أن يواجه « بكشيديس » إذ لم يكد وجيشه والحشمونايم يلتقون بـ« بكشيديس » حتى هربوا إلى غابات الأردن ومن ثم حاولوا تهريب النساء والأطفال إلى قبيلة نبطيه صديقة فالتقى « بنى عمرى » حلفاء السوريين بهم

فنكاوا بهم شر تنكيل وبقائدهم « يوناثان» بينما نجد « بكشيديش » بنقض على اليهود المختبئين فى أحراش الأردن فيولون مذعورين إلى نهر الأرن ملتمسين النجاه بين أمواجه فيبتلع من يبتلع ولم ينج من أمواجه الصاخبة إلا النفر القليل . وأستولى الجيش السورى بقيادة « بكشيديس » على سائر تلك الإقاليم كما أنه ظل يطارد اليهود حتى أنهكهم فكانوا لا يفروں من هزيمة إلا تتلقفهم أخرى وأخرى وأخيراً جمع القائد السورى أولاد أعيان اليهود وأخذهم رهينة . وهكذا نجح الجيش السورى عام ١٦٠/١٥٩ ق.م. فى تحقيق خطته الخاصـــة بالقضاء على الكيان اليهودى جيشاً وشعباً كما استأصل شأفة الحشمونابيم وساد السلام البلاد عامين. ١٥٩ — ١٥٧ ق.م.

إلا أن اليهوديين الحشمونيين (يوناثان) و (شمعون) غدرا وقررا التدبير لحرب أخرى فاتجها إلى واحة فى صحراء (أريحا) بالقرب من الأردن وحيث توجد هناك غابة ونبع ماء فضلا عن أن نهر الأردن يستخدم خطا للدفاع لهما من جهة الخلف فى حالة الهجوم عليهما أو ملاذا به عند الهزيمة والتقى بهما الجيش السورى بقيادة « بكشيديس » فهزم جيشهما وأبرم معهما صلحاً على أن يقدم « يوناثان » رهائن من اليهود لبكشيديس ولا يدخل أورشليم . ومن عجائب الصدف أن ظهر فى تلك الفترة شاب فى أزمير يدعى (الكسندر بالاس Ai palas) واستغله (اتللوس Attalus ملك (برجاموس Pergamos) ليجعل منه منافساً خطيراً لملك سوريا «ديمتريوس» فاتصل بالحشمونى يوناثان وأغراه ليكون حليفاً له وطلب إليه أن يعد جيشاً ويعاون الكسندر مقابل الأفراج عن الرهائن اليهودية التى فى قبضة السوريين فسارع يوناثان إلى أورشليم واستولى عليها وحصنها بمساعدة (الكسندر بالاس) وبالغ الكسندر فى سبيل كسبه نهائياً إلى صفه فأهداه معطفاً قرمزيا وتاجا من الذهب وعينه الحاخام الاكبر واستغل يوناثان عيد المظال عام ١٥٢ ق م . ودخل المعبد وأعلن نفسه حاخام أكبر فكان أول حشمونائى يبلغ هذه المكانه وهكذا احتفظ بها للبيت الحشموناى زمنا طويلا وظل يوناثان حاكما تسع سنوات « ١٥٢ — ١٤٤ ق. م. » كانت سنوات

تقدم وانتعاش لليهود لأنه عرف الجانب الذى يحالفه النزاع القائم حول العرش السورى أعنى (الكسندر بالاس) ضد (ديمتريوس) ملك سوريا الذى حاول جاهدا إصلاح ذات البين بين العرش السورى وبين اليهود فبالغ فى مراعاة شعورهم الدينى حتى حرم استدعاء اليهودى للتقاضى أو التحقيق معه فى الفترة الممتدة بين ثلاثة أيام قبل العيد وبعده وكذلك يوم السبت وبالرغم من كل هذه المعاملات الحسنة أخذ (يوناثان) — الحشمونى جانب « الكسندربالاس » وعاونه حتى تم له الانتصار على « ديمتريوس » . وجلس « الكسندر بالاس » على عرش الملك طوال الفترة الممتدة من ١٥٢ إلى ١٤٦ ق . م وفيها حقق اليهود توسيع رقعة بلادهم أعنى إقليم يهوذا على حساب البلاد المجاورة وقد أدى هذا الوضع الجديد للملكية السورية واقتصامها بين « الكسندر بالاس » و « ديمتريوس » الثانى إلى أحداث فتنة بين السوريين أنفسهم فريق يدين بالولاء للكسندر بالاس وآخر لديمتريوس وانتهز اليهودى يوناثان هذا الظرف وقرر التخلص من الحزب المعارض أعنى الحزب اليهودى التقدمى المتأثر بالثقافة الهللينية فهاجم هؤلاء المعارضين فى عكا وحاصرها فطلب يهودها حماية الملك السورى ديمتريوس الثانى ، فما كان من اليهودى يوناثان أن غدر بحليفة الكسندر بالاس وقصد « ديمتريوس » وقدم له كثيرا من الهدايا ونجح فى كسب ثقة الملك ديمتريوس حتى عينه حاخاما أكبر وأخذ ينصب شباك الحيل ويوسع رقعة إقليمية حتى لم يبق أمام « ديمتريوس » الثانى إلا أن يعمل للتخلص منه فوصى أحد قواده إلا وهو « ديوبوتوس تريفو Diobotos Tryphon » بتدبير خطة للقضاء عليه فما كان من هذا القائد إلا أن غرر بيوناثان واصطحبه وجيشة إلى عكا وهناك أنقض عليه السوريين فأوقع بالجيش اليهودى هزيمة ساحقه ووقع يوناثان فى الأسر . أما الابن الحشموناى الباقى على قيد الحياة الا وهو « شمعون » فلم يكد يسمع بخبر هذه الهزيمة وأسر يوناثان حتى بادر إلى الاستعداد للدفاع عن أورشليم إذا ما هاجمها القائد السورى « تريفون » Tryphon

وقرر تريفون أن يلعب بالإبقاء على يوناثان حياً لعبة تخدم سوريا وسائر الاقاليم المجاورة وتقضى نهائياً على الخطر اليهودى فأعلن « تريفون » أنه اعتقل « يوناثان » ضماناً لتحصيل الضرائب المستحقة على إقليم يهوذا للخزانة الملكية فإذا ما سدد اليهود هذه الأموال وقدموا الابنين الاثنين ليوناثان رهينة لاستتباب السلام فإنه ولا شك سيطلق سراحه وهكذا نجد « شمعون » إنقاذاً لحياة أخيه يوناثان يرسل المال وابنى يوناثان إلى القائد السورى « تريفون » وبعد ذلك أمر (تريفون) بإعدام يوناثان عام ١٤٣ ق . م . فاختفى شبح هذه الأسرة الحشمونائية من الوجود سياسياً لفترة ما وإن كان بعض أرماء هذا البيت ظل يقوم بدور ثانوى فى الحياة اليهودية فى فلسطين .

وإذا تركنا فلسطين واتجهنا إلى مصر لنعود إلى فلسطين ثانية وجدنا وطن الفراعنة لا يزال يرسل شعاعه الروحى على سكانه والمستجيرين به أن مصر وطن موسى والتوراة والعقيدة اليهودية لا زالت مصدر التوجيه العقائدى اليهودى إبان عصر الحكم اليونانى إذ كانت مصر مأوى ومهجر اليهود فقد انتشر اليهود فى كنانة الله وجالهم وقتذاك حالهم أيام الآباء الأولين الذين وفدوا على مصر وتكاثروا فيها وتمتعوا بجميع الحقوق التى يتمتع بها المصريون واليونانيين وفى مصر تركز اليهود فى الإسكندرية خاصة كما اهتموا بطرق النقل البحرى واعتمد الرومان على الحاصلات الزراعية المصرية فاهتم اليهود بتجارة الحبوب وبيعها لروما ونقلها على السفن اليهودية فتجمعت ثروة التجارة والنقل فى يد اليهود فازدادوا ترفاً وأبهة كما اهتموا بثقافة اليونانية والعلوم فكان يهود مصر الركيزة التى اعتمدت عليها اليهودية أين وجدت .

شمعون ويوحنا هيركان (١٤٣ — ١٠٦ ق . م .) .

اقتنى شمعون أثر أخيه يوحنان ، أعنى انتهز فرصة ضعف العدو فقام وحصن البلاد وقواها لتوسيع رقعتها ، وهكذا نجد شمعون يحرر البلاد نهائياً من سوريا وجعل من مملكة يهوذا دولة مستقلة كما تخلص من الحزب القدمى لذلك يوصف

عهد حكم شمعون الذى دام تقريباً تسع سنوات على أنه العصر الذهبي للبلاد إذ مكن الشيخ أن ينعم بحياة الهدوء فى خريف حياته وأخذ الشاب يفرح بشبابه والفلاح يتمع بالجلوس تحت كرمه أو تينته .

ولكى يؤمن شمعون نفسه من سوريا فكر فى وضع نفسه وبلده فى خدمة روما عاصمة الطغيان فى ذلك العصر فارسل وفداً إلى روما راجياً وضع بلده تحت حمايتها وذلك بوضعه ضمن رابطة دول الإمبراطورية الرومانية ورحبت روما بهذه الفكرة لأنها اعتبرتها الخطوة الأولى للاستيلاء عليها نهائياً وأعلنت روما قرارها بضمها إلى الرابطة رسمياً عام ١٤٠ ق . م . ولم يكد يمضى قرنان على هذا الاعلان حتى طلبت روما من يهود فلسطين تكريم واحترام القيصر الرومانى والدعاء له فى المعبد وتلت هذه الخطوة خطوة أخرى تمت بعد ثلاثين عاما من هذا الطلب قضت على الشعب اليهودى قتلا وسبياً وتشريداً وشاءت الأقدار أن بطلميوس بن هبوب زوج ابنة شمعون اغتال شمعون عندما كان يقوم بجولة فى البلاد وفى رفقته زوجه وأبناه الصغيران فمر فى رحلته بحصن بالقرب من أريحا وهناك استقبله ابن هبوب استقبالا حسناً وأولم وليمة فاخرة لشمعون ومن معه وفى أثنائها انقض على شمعون وولديه « يزدا » و « متاتيا » وقبض عليهم وكان ذلك فى فبراير عام ١٣٥ ق . م . أما ابنه الأكبر « يوحنان » فقد نجا لأنه كان قد تخلف . وهكذ مات آخر أبناء متتياهو المكابى فلم ينج واحداً منهم من القتل .

إلا أن « يو حنان » لما علم بالخبر سارع وأخذ زمام المبادرة لمقاومة « ابن هبوب » وإحباط رغبته فى الاستيلاء على الحكم بمساعدة سوريا فقام يوحنان بعدة أعمال عسكرية ضد خصومه وبخاصة الهيركانيين لذلك اشتهر باسم « يوحنان هيركانو » ثم أرسل وفداً إلى روما يعرض عليها حمايته للصداقة اليهودية الرومانية كما أشار إلى استيلاء سوريا على ميناء يافا وغيرها فاستجابت روما إلى نداء يوحنان وأرسلت إلى انطيوخوس تطالبه بإعادة الأماكن التى استولى عليها إلى اليهود ثانية كما حذرته روما من محاولته القيام بأى عمل فدائى ضد اليهود وكان ذلك حوالى عام ١٣٣ ق . م .

واستغل اليهودى هيركان هذه الحماية الرومانية وضعفت الجبهة الداخلية السورية وقرر توسيع رقعة حدود بلاده على حساب جيرانه من الشعوب الأخرى وفى ذلك الوقت أعنى عام ١٢٤ أرسل يهود أورشليم بزعامة المجلس الأعلى إلى يهود مصر وزعيمهم (يهودا أريستوبول والذى ينتمى إلى أسرة كهنوتية عريقة ومدرس الملك رسائل يطالبون فيها يهود مصر بالاعتراف بتطهير المعبد الأورشلمى من رجس الجوييم والاحتفال سنوياً بهذه الذكرى .

ولم تقف مطامع (هيركان) أو يهود إقليم يهودا عند هذا بل نجده يدبر خطة أخرى للقضاء على الشعوب غير اليهودية المحيطة باقليم يهودا ففى الجنوب نجد الأدوميين وفى قلب يهودا نجد السامريين الأعداء الألداء وعلى الضفة الأخرى من الأردن نجد اليونانيين ولكى ينجح هيركان فى تنفيذ خطته التوسعية هذه قرر الاستعانة بجنود مرتزقة ولتمويلهم نبش قبر داود واستولى على ما به من ثروة وبدأ بالأردن فاستولى على مدينة مادبا Medaba و (ساميجاس Samegas) على بحيرة طبرية ثم أخذ يستولى على المدن السامرية تدريجياً فحطم (زيشيم Sichem) والمعبد القائم على جبل • جرزيم Garizım (وأخذ اليهود يحتفلون سنوياً بيوم الاستيلاء على هذه البلاد وتحطيمها .

ولم يكتف اليهود بالاستيلاء على هذه البلاد بل أجبروا الأدوميين على اعتناق اليهودية وحطموا معابدهم الأخرى وهكذا نجد اليهودية بزعامة (يوحنان هيركان) تضيق ذرعا بالعقائد الأخرى فتقضى عليها .

وترتب على إرغام الأدوميين على اعتناق اليهودية بعد الاستيلاء على بلادهم إن اندلعت نيران الحرب ثانية بين اليهود وبين السامريين وذلك لأن أغلبية سكان مدينة السامرية كانوا من اليونانيون أو السوريين وإمعاناً فى اضطهاد المغلوبين نقل اليهودى • يوحنان هيركان (عدداً من الأدوميين الذين اجبروا على اعتناق اليهودية من إقليم (ماريسا) إلى إقليم سماريا فدفع هذا

العمل الانتقامى سوريا إلى الانتقام من اليهود فهاجموا إقليم يهوذا واستولوا على عدة أماكن ساحلية ومن بينها « يافا » فشكا اليهودى « هيركان » السوريين لدى روما حامية اليهودية واستجابت روما لتوسلات اليهود فهاجم اليهود سامريا واستولوا عليها بعد حصار طويل شديد وساووا بينها وبين الأرض فلم يترك اليهودى منزلا قائماً ومحوا معالم المدينة نهائياً وكان ذلك حوالى عالم ١٠٩ ق. م. وهكذا استطاع اليهود بمساعدة روما الارتفاع بقدراتهم إلى مستوى جيرانهم من حيث القوة والمكانة إذ انتصر اليهود على جيرانهم الذين كانوا يهددونهم فاتسعت رقعة إقليم يهودا بعد أن كسر اليهود الحصار المضروب حولهم وزحف اليهود إلى العالم الخارجى فنمت ثروتهم وازداد خطرهم وبخاصة لما سقطت طرق القوافل بين مصر وسوريا فى ايديهم وانتهز يهود مصر الشحناء التى قامت بين ملك مصر « بطلميوس لاثوروس Ptole-maeus Lathuros ووالدته التى كانت تنازعه على عرش مصر واضطرته إلى الهرب إلى قبرص وأخذت ترميه بالجيش وراء الجيش للقضاء عليه نهائياً إلا أن الجيوش المصرية انضمت هناك إلى الملك فما كان من امه إلا أن سيرت إليه جيشاً يهودياً مصرياً تحت قيادة « هلكيا Helkia » و « أنانيا Anania » ابنى « أونياس » فحققا رغبة أم الملك التى كانت خاضعة لنفوذ وتوجيه يهود مصر الذين يديرون الخطة لإضعاف مصر وشل يديها عن تقديم مساعدة لأصدقائها فى فلسطين وسوريا وهكذا نجد يهود مصر يعملون مع يهود إقليم يهوذا يداً واحدة لتحقيق هدف مشترك الا وهو الاستيلاء على أكبر رقعة فى الشرق أولا وإضعاف جيران اليهود الذين قد يهددونهم ثانية وخصوصاً بعد أن تعلم اليهود من جيرانهم فنون الحرب والتسليح وإقامة الحصون وضرب النقود وزخرفة المعمار فقد شيدت الأسرة الحشمونائية قصراً فخما على الطراز اليونانى وأمامه قاعة تعرف باسم كسيستوس Xystos لعقد الاجتماعات الشعبية وفى مدينة مادبا وطن الأسرة أقيمت مقبرة من الرخام على الطراز اليونانى . وفى هذا العهد ظهرت الفرق الدينية المختلفة ألا وهى الحسيديم والاساة والفريسيين والصدوقيم .

أما الفريسيون قد اشتقوا اسمهم من اهتمامهم بتفسير الشريعة وعن هذا التفسير أثبتت قوانين أخرى وشعارهم المحافظة على اليهودية أعنى الشريعة واحترام سنن السلف الصالح وأى انحراف عن أصل الشريعة أو السنة يعتبر كفراً .

أما الصدوقيون فكانوا يقولون بمذهب الغاية تبرر الواسطة فالمسائل الدينية يجب ألا تقف عقبة فى سبيل تحقيق غاية سياسية ويسخر الفريسيون منهم ويقولون ويقدرون فتضحك الاقدار فمقدرات الدوله والأفراد لاتتوقف على الناس بل على الله فاذن لاداعى للانحراف فلا القوة البشرية ولا الذكاء البشرى ولا القوة العسكرية تقرر حاضر الشعب اليهودى أومستقبله بل إرادة الله هى الأولى والأخيرة ، وهكذا تصطدم الفرقتان الدينيتان حول كثير من المسائل الدنيوية والدينية والثواب والعقاب .

ثم نجد طائفة الصدوقيين تسلك طريقاً سياسياً خاصاً وذلك لأن معظم أعضائها من أغنياء اليهود ورجال الجيش والساسيين الذين جمعوا كثيراً من الثروات والتجارب نتيجة أسفارهم واتصالاتهم بالعالم الخارجى وكان شعارهم الوطن أولا والدين ثانياً وهم يؤمنون بأن الإيمان بالله والتمسك بشريعته لا يكفيان لضمان سلامة واستقلال الدولة اليهودية ، ويقول الصدوقيون إن منح الفرد حرية الإرادة ليختار الوسيلة التى تلائمه لكى يعيش حياة سعيدة فالإنسان هو سيد نفسه وسيد مقدراته والله لايتدخل فى المسائل الخاصة بالبشر أما الثواب والعقاب فيناله الفرد من النتيجة التى تأتيه من عمله ولا ضرورة لأن يؤمن الإنسان بالبعث بعد الموت. وفيما يتعلق بالشريعة وما إليها ووجوب احترامها والعمل بها فالصدوقيون يؤمنون بالشريعة المكتوبة فقط والواردة فى الأسفار الخمسة الأولى أعنى التوراة أما الأحكام الأخرى التى جاءت عن طريق الرواية أو نشأت فى عصور أخرى فلاقيمة لها ولا الفرد غير مطالب بالإيمان بها أو احترامها . فالفرق الرئيسى بين الصدوقيين والفريسيين يتناول المسائل القضائية والطقوس وأن اختلفت الطائفتان حول الطقوس المتعلقة بالمعبد .

وغير هاتين الطائفتين ظهرت طائفة « الإساة » وهى أصلا امتداد للحشمونائيم الذين كانوا يعنون بصفة خاصة بتقديس السبت حتى حرموا على أنفسهم الغائط والبول يوم السبت، كما تخلصوا من الرذائل وملاذ الحياة وكانوا متزمتين جداً حتى أن مجرد ملامسة شخص آخر يخالفهم يعتبر نجاسة تلزمهم الطهارة أو تقديم القرابين ، لذلك كانوا يبتعدون عن المرأة حتى كأنهم يحرمون الزواج وكانوا ضد الحرب وينفرون من الجنود حتى العائدين منهم من المعركة الذين نجستهم جثث الموتى لذلك اختاروا لإقامتهم أماكن نائية عن الناس فأقاموا فى الصحراء الواقعة غرب البحر الميت فى واحة «عين جدى » كما رفضوا الملكية الفردية وذلك لأن كل فرد منهم يعيش فى الجماعة والجماعة تعمل متعاونة للحياة وكانوا يلبسون ملابس بيضاء ويحمل كل فرد منهم جاروفاً حتى إذا اضطر إلى إخراج شىء من السليلين شق الأرض . وعلى كل فرد أن يستحم كل صباح كما يفعل الحاخام قبل الصلاة تأكيداً لطهارة جسده .

وحدث أن « هيركان » الحشمونائى ناصر الصدوقيين على الفريسيين فغضب هؤلاء ومن ورائهم الشعب المتدين فدب بغض الشعب للحشمونائيم . وتوفى « هيركان » عام ١٦٠ ق م . وقد بلغ الستين عاماً وترك خمسة أولاد (أريستوبول) و (أنتيجونوس) و (الكسندر) و (أسلون) ولا نعرف إسم الخامس . وبعد وفاته دب الشقاق بين اليهود كما حدث من قبل عقب وفاة سليمان بن داود .

خلفاء هيركان أريستوبول :

لما حضرت « يوحنا هيركان» الوفاة عين زوجته ملكة، وإبنه الأكبر «يهودا» أو كما يعرف فى اليونانية بإسم « إريستوبول » كبيراً للحاخاميين ، فطرد أمه من العرش وجمع هو بين الوظيفتين . ولم يكتف « اريستوبول » بطرد أمه من العرش بل زج بها فى السجن ومعها ثلاثة من إخوته ولم يرع إلا أخاه « أنتيجونوس » الذى كان يتفق معه فى مشاريعه ونظرته إلى الحياة وآرائه السياسية فأشركه معه فى الحكم وسار سيرة أبيه فخاصم الفريسين وأقصاهم عن نشاطهم فبغضه الشعب ونفر منه اليونان وأنصار الثقافة الهللينية فرأى اليونان فيه الصفة اليهودية الوضيعة بينما

تبين اليهود فيه غلظة القلب والقسوة ،وقد ترك أمه فى السجن تموت جوعاً، كما يقال أيضاً أنه دبر قتل أخيه « إنتيجونوس » غيرة منه .

وأراد « إريستوبول » توسيع رقعة بلاده فمد حدود إقليم يهوذا شمالا بشرق حتى بلغت مشارف دمشق ، واقتفى أثر والده فهود الشعوب التى غلبها على أمرها . ومات اريستوبول بعد أن ملك سنة واحدة فقط (١٠٦ — ١٠٥) ق.م .

فجلس على العرش أخوه الأصغر « يوناثان » أو كما يسمى أحياناً مختصراً « يناى » أو فى اليونانية « الكسندر » وتزوج من « سالومى » التى تسمت فيما بعد « الكسندرا » . ورغب فى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية فاستولى على ميناء « بطليموس يهوذا » وهى قريبة من «عكا » الحالية ، فلجأ سكانها إلى مصر فانتهز الأمير « بطليموس لاثوروس » هذه الفرصة وسارع لتوسيع رقعة ممتلكاته وكان قد استولى على قبرص بسبب الحرب التى نشبت بينه وبين أمه ورغب « لاثوروس » الاقتراب من مصر براً فسارع وأرسل ثلاثين ألف مقاتل إلى شاطىء إقليم يهوذا ، فضرب الجيش اليهودى ضربة قاضية ، فقتل من قتل وأسر منه كثيرين كما هرب آخرون وانتقم لنفسه لا من الأسكندر فقط ، بل من اليهود أنفسهم ، وبخاصة فإن يهود مصر كانوا قد ضايقوه كثيراً بخياناتهم وعدائهم له فهم الذين حرضوا أمه كليوبطره عليه وأوهموها أنه بعد أن يفرغ من فتح يهوذا سينقض عليها فى مصر ويستولى عليها، فعبأت جيشاً قوياً تحت قيادة قائدين يهوديين وهما « حلقيا » و « انينا » إبنى « أونياس» الذين سارا بهذا الجيش إلى يهوذا وسوريا طامعين فى الثأر لليهود الذين نكل بهم « لاثوروس » تنكيلا جباراً واصطدم الجيشان وقتل«حلقيا» وانتصر «عنيانيا» وجيش مصر على «لاثوروس» ورغب يهود مصر من كليوبطرة تجريد الاسكندر من العرش وضم أملاكه إلى مصر إلا أن كليوبطره رفضت هذا الاقتراح يقيناً منها أن مثل هذا الضم قد يفهم أنه استيلاء على إقليم يهوذا فيتعاون يهود مصر وغيرها مع أعدائها للقضاء عليها لذلك رأت الإبقاء على الاسكندر وعقدت معه معاهدة دفاع مشترك حوالى عام

٩٨ ق . م . للدفاع عن مملكة يهوذا ضد أى عدوان خارجى . إلا أن الاسكندر سلك مسلكا أثار علية طائفة الفريسيين لاستهتاره بطقوس المعبد نشأ عنه ضعف فى الجبهة الداخلية وتصدع خطير ، ومما زاد الطين بله جنونه بحب التوسع والغزو مما أغضب الملك النبطى العربى «عبيدة» فانقض على الاسكندر بجيش قدم به من شرق الأردن فأباد الجيش اليهودى ولم ينج الاسكندر من الموت إلا هرباً إلى أورشليم فزادت هذه الهزيمة من إشاعة الفوضى ، فاندلعت الثورات الداخلية طيلة ستة أعوام (٩٤ — ٨٩) ق . م . ولم يستطع الاسكندر القضاء على الاضطرابات الداخلية إلا بفضل الجنود المرتزقة . ولما أعيته الحيلة طلب مصالحة الفريسيين فأبوا إلا قتله واتفق الفريسيون مع الملك السورى «ديمتريوس أويكاروس «Demetrios Eukaeros» على احتلال البلاد فهرب الاسكندر من وجه الجيش السورى وهام على وجهه فى جبل إفرايم ، ثم جمع حوله نفراً من أنصاره وأسر عدداً من الفريسيين وصلبهم كما قتل نساءهم واطفالهم وإبان هذه المذبحة التى صلب فيها نحو ثمانمئة رجل فأثارت هذه المذبحة وهذا الصلب حنق القوم حتى لقبوه باسم طرازير « Thrazier » كما هرب من وجهه عدد كبير من اليهود الى سوريا ومصر .

ولما حضرته الوفاة عين امرأته ملكة وأحاطها بجماعة من المستشارين الذين يتولون زمام الأمور وأوصى الملكة بأنه عندما يفارق الحياة تسلم جثته للفريسيين الذين ناصبهم العداء طيلة حياته ، والفريسيون إما ينتقمون من جثته فيشبعون شهوتهم الانتقامية أو يغفرون له ذنوبه ويوارونها التراب حسب الطقوس الشرعية ، وقال جملته شهورة « لا تخف الفريسيين الصادقين ولا الخصوم الحقيقيين بل أخشى المنافقين الملونين الجانبين . » .

آخر ملوك الحشمونائيم (٦٩ — ٣٧) ق . م :

لا شيء يعجل بزوال الدولة مثل التنازع على الرئاسة وتحريض كل طائفة شعبية على الأخرى وإقحامها فى هذه المنازعات التى تضعف الأمة وتمكن عدوها منها .

فقد قررت الملكة « سالومى الكسندرا » وهى تعانى سكرات الموت التنازل عن العرش لابنها البكر ، الا وهو « هيركان الثانى » عملا بالشريعة الموسوية وقد اشتهر هـذا الرجل بطيبة القلب مع ضعف فى الإرادة بخلاف أخيه الأصغر « أريستبول الثانى » الذى كان يشبه أباه قسوة ووحشية إذ لم تكد تغمض الملكة عينها ويتولى « هيركان » الملك إلا وهجم « أريستبول » يعاونه الصدوقيون على أورشليم لإزال أخيه من على العرش والذى كان يسانده الفريسيون والشعب والجنود المرتزقة الذين كانت تعولهم الملكة ، وتنفق عليهم وقد نجح « أريستبول » فى القبض على امرأة أخيه الملك وأولاده وأخذهم رهينة . وفى أريحا التقى الاخوان المتنازعان على رأسى جيشيهما وخسر « هيركان » المعركة وهرب إلى أورشليم وذلك لأن معظم المرتزقة هربوا وانضموا إلي أريستبول » الذى نجح أيضاً فى الاستيلاء على المعبد وأسر خصومه الذين كانوا لاذوا به ، وأصبح أريستبول سيد العاصمة والمعبد وهكذا ضاع العرش الذى جلس عليه هيركان ثلاثة شهور فقط وضماناً لاستقرار الأمر اقترن ابن (أرستبول) المسمى (الكسندر) بابنة (هيركان)المسماه (الكسندرا) وهكذا انتصر الصدوقيون على الفريسيين .

وشعر (أريستبول) بالخطر الذى قد يقضى عليه إذا ما تمكن الصدوقيون من الانتقام من الفريسيين أو محاولة فرض تعاليمهم على سائر اليهود بالقوة . وشاءت الأقدار أن أحد الآدوميين الذين هودهم قوة واقتهاراً « يوحنان هيركان»وسنحت له الفرصة للانتقام لبنى جنسه . وهذا الأدوس هو « انتيباتر Antipater » بن « انتيباس Antipas من أسرة أدومية كريمة وكان ثرياً ذكياً وسياسياً عظيما حتى عينه الاسكندر حاكما على إقليم أدوميا فكان يتمتع بحب الجميع من آدوميين وغيرهم من الأنباط وسكان قطاع غزة وعسقلاون كما وقع اختيار « هيركان » عليه ليكون مستشاره الخاص بعد أن فقد صولجه ونصح « انتيباتر » الأدومى للملك المخلوع أن يحتكم بخصوص عرشه الضائع إلى شخصية أجنبية ولتكن شخصية « أريتاس Aretas » ملك النبط ، وهرب كل من « أنتيباتر » و« هيركان » من أورشليم

إلى (بطزة) عاصمة الملك النبطى (أريتاس) ورجاه (هيركان) أن يناصره لاسترداد عرشه الشرعى، فإذا ما تم له هذا فإنه سيتنازل للملك النبطى عن اثنى عشر مدينة تقع فى شرق وجنوب غرب البحر الميت فتحرك (أريتاس) على رأس جيش من خمسين ألف مقاتل إلى مملكة يهوذا والتحم عام ٦٦ ق . م بجيش (أريستوبول) وهزمه واضطر (أريستوبول) إلى الهرب إلى أورشليم فلاحقه (أريتاس) للاستيلاء على أورشليم ، فلم يكد يهود أورشليم يرونه حتى هربوا من أورشليم ، ولجأ معظمهم إلى مصر .

وانتهزت روما هذه الحرب وكانت فى ضيق مالى فساومت الملكين اليهوديين المتنازعين ، أعنى (هيركان وأريستوبول) على المسارعة إلى تقديم الذهب اللازم إلى القائد الرومانى (سكوروس) فقدم « أريستوبول » كمية وفيرة من النقود الذهبية بينما اقتصر «هيركان » على بذل الوعود، لذلك سارع « سكورس» وطالب « أريتاس » بفك الحصار عن أورشليم وإلا سيتعرض لانتقام روما التى كانت تخشى زيادة قوة الملك النبطى العربى «أريتاس» وكان ذلك عام ٦٥ ق.م، واغتر «أريستوبول» واعتقد أنه سيد الموقف والملك القوى وقد داعبه هذا الغرور عامين (٦٥ ــ ٦٣ ق . م) إذ هاجم القائد الرومانى « بومبيوس » أورشليم واحتل مملكة يهوذا وهكذا نجح كفاح المكابيين ضد السوريين ثم تلاشى فى أواخر عهدهم وتم للرومان احتلال البلاد واستعباد اليهود وانتهز « هيركان » هذه الفرصة ولجأ إلى روما طالباً منها التحكيم بينه وبين أخيه وبخاصة فقد جرد « بومبيوس » الملك « هيركان» من لقبه الملكى واحتفظ بلقب الحاخام الأكبر و « أمير الشعب » ووضعه تحت سيادة « انتيابتر » الأدومى الذى عينته روما حاكما على البلاد وفرضت جزية على اليهود .

والآن نتساءل ما نوع الجزية التى فرضتها روما على اليهود ؟ لم تكن هذه الجزية من نوع الذى جرت عادة الرومان عليه، وليست الجزية التى كانت تفرضها على الشعب المنهزم أعنى تأميم الأراضى الزراعية والحدائق والمراعى مع تركها لأصحابها يستغلونها

كمستأجرين فقط على أن يوردوا بعض محصولها نظير الانتفاع بهـا أو تركت بعض الأراضى لأصحابها الذين أدوا خـدمات للرومان أو منحت روما أراضى الذين اوقعوا فى الأسر لآخرين يستغلونها ؟

والواقع أن شراهة الرومان فى امتلاك الأراضى تفوق كل شراهة وذلك لأن الرومان لما أخضعوا البلاد اليهودية واستولوا عليها فتتوها إلى ملـكيات صغيرة وعادوا بها إلى ما كانت عليه قبل الحـكم الحشمونائى ، كما أعلن « بومبيوس » أن جميع الموانى أو المدن الساحلية والتى تقطنها جاليات يونانية مدن حرة وتركها لسكانها كذلك الحال مع كثير من المدن الداخلية أو الواقعة على الضفة الأخرى للاردن كما استقطع من قليم يهوذا كثيراً من المدن مثل « سماريا وبيت شـان » ومدن أخرى فى وادى يزرعئل ضم معظمها إلى سوريا ، كما ساق « بومبيوس » بعد انتصاره على أورشليم « أريستبول » وابنه « أنتيجونوس » وابنتيه وعمه « أبسالون » إلى روما لينضموا إلى مسيرة الأمراء الذين هزمهم « بومبيوس » وأسرهم ، والذين طلب إليهم أن يسيروا أمام عربة « بومبيوس » فى مسيرة النصر عام ٦١ ق . م .

فهؤلاء اليهود الذين عرفوا روما عن طريق الأسر وجدوا ولا شـك يهوداً آخرين فيها وفدوا من مصر وكانوا يعملون فى تجارة الغلال بين مصر وروما وقد كانوا يقيمون على الضفة اليمنى لنهر التيمبر المواجهة لجبل الفاتيكان . وما كادت الحياة تدب فى هؤلاء اليهود حتى أخذوا يتدخلون فى توجيه الرأى العـام الرومانى إلى مصلحتهم مما اضطر أمثـــال « أبولونيوس مولو » وتلميذة « شيشيرون » إلى بذل الجهود لمقـاومة هذا الخطر اليهودى وبخـــاصة فى دفاعه فى قضية « فلا كوس Flaccus » فقد هاجم شيشيرون اليهود وأفصح عن غرائزهم الشريرة وجرائمهم الشنيعة .